

انفروا خفافاً وثقالاً

وهذه هي المرحلة التي بينها □ تعالى في قوله: (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) الحج 5. وقريب من هذا اللفظ النحل 70. ومرحلة أرذل العمر يبدأ فيها الإنسان بفقد العلم أو عدم مقدرته على إضافة علم إلى علمه الذي بدأ يفقد أجزاء منه بطريقة تتابعية، فالذي تنطبق عليه هذه الأعراض التي أشرنا إليها يمكن أن يسمى شيخ كبير أو عاجز عن العمل أو غيرها من الاطلاقات التي تخرجه عن مصطلح الشيخوخة المجرد، ولذلك نجد أن بنات الرجل الصالح قد وصفن أباهن بأنه شيخ كبير كما في قوله تعالى: (قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) القصص 23. وقيل: إن هذا الرجل هو شعيب، وكذلك أضاف زكريا إلى كبره قرينة "عتياً" كما في قوله: (وقد بلغت من الكبر عتياً) مريم 8.

وهذه القرائن المضافة تفيد أن المراحل التي ذكرت في هذه الآيات، لا تعني السن الذي يحصل فيه الإنسان على التقاعد عن العمل كما هو متعارف في القوانين الوضعية للدول في وقتنا الحاضر، لذلك نجد أن بعض الدول تهتم بتعليم الكبار فضلاً عن غيرهم، ولهذا الإهتمام كثير من الأهداف أهمها عدم توقف عجلة الحياة في عمر معين، كذلك يمكن الاستفادة من الكبار ووضعهم في أماكن مناسبة لهم بعد اتمام دراستهم، باعتبار أن هناك بعض الأعمال لا يستطيع القيام بها إلا كبار السن، وقد يكون عمل الفئة المسنة من أكبر الحوافز التي تجعل الشباب يسيرون على خطاهم، وهذا النوع من الاهتمام بالكبار ربما يكون ضعيفاً أو معدوماً في دول العالم الثالث التي تنظر إلى قانون التقاعد وإن شئت فقل التقاعس على أنه القانون الذي يحدد حركة الكبار، فإن قيل: هذا القانون يوجد في جميع دول العالم؟ أقول: نعم إلا أن حركة الكبار وتوجههم للدراسة والعمل الجديد الذي يناسبهم لا يحدد بهذا القانون، ولو تأملنا القرآن الكريم نجده يذم الحياة التي تبعث على الخمول والملل أو بالأحرى الحياة التي لا يوجد فيها أي نوع من أنواع الحركة التي يستحق الإنسان العيش من خلالها، ولذلك فإن الحق تبارك وتعالى يشير إلى هذه الحياة الخالية من العطاء في قوله: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) البقرة 96. وفي تنكير حياة دليل على حقارتها أو أخذها على أي وجه حاصل لديهم.

ومن هنا فإن القرآن الكريم يضعنا في صورة من أروع الصور ألا وهي صورة الكهولة التي تجعل الإنسان يأخذ توازنه في الحياة، وكأن هذه المرحلة هي التي بدأ منها وليس تلك التي تكون بداية لنهايته كما في مخيلة البعض الذين لا يقدر عمر الإنسان بالطرق الوسطى، ولذلك يقول عز من قائل: (حتى إذا بلغ

أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً
ترضاه) الأحقاف 15. وبلوغ الأشد على ما قيل هي الفترة الواقعة بين الثلاثين والأربعين. والأربعون تكون
غاية الرشد التي يتهيأ فيها الإنسان لممارسة دوره في الحياة بصورة أكثر جدية من المراحل السابقة
التي عاشها بين الطفولة والشباب، أما الآن فقد بلغ النضوج لديه مبلغاً يجعله يميز الغث من السمين
والصحيح من السقيم، إلا أن الفرق الذي يجب أن نشير إليه هو الاهتمام في التوجه العرضي لعمر الإنسان،
فقد يعيش الإنسان عمراً طويلاً ولا يقدم فيه للحياة إلا المأساة والمعاناة التي يتركها بعد رحيله.

ومقابل هذا نجد أن بعض الناس الذين لا يعمرّون طويلاً قد أثروا الحياة حتى أمست آثارهم من أسباب
بقاء ذكرهم الحسن بعد رحيلهم، ومن هنا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أقسم بعمر النبي (صلى الله عليه
وسلم) في قوله: (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) الحجر 72. وهذا القسم بعمر النبي لا يعني أنه من
المعمرين في الأرض ولكن العمر الذي مر عليه كان مليئاً بالعطاء والتضحية والجهاد في سبيل الله
تعالى، حيث لا توجد في عمره ثغرة واحدة يتخللها الميول الخاص الذي نجده في نفوس من يتولى أمر
الناس، وبناءً على ما مر نجد أن القرآن الكريم يولي اهتمامه بجميع الأعمار في حالات الجهاد والنفير
العام إلا ما يخرج الدليل، ولذلك يقول جل شأنه: (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم
في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) التوبة 41.

وهذه الآية نزلت في معركة تبوك، وفيها أمر بالجهاد ودعوة عامة إليه، وقوله تعالى: "خفافاً
وثقالاً" الخفاف جمع الخفيف، والثقال جمع الثقيل، وهذا مفهوم عام تنطوي تحته كثير من المصايق، أي
انفروا في أي وضع كنتم شباباً أم شيوخاً، أغنياء أم فقراء، سواء كانت لكم أعمال أم لم تكن،
تعولون أحداً أم لا تعولون، فالدعوة عامة للجميع وبدون استثناء إلا ما أخرجه الدليل كما قدمنا. هذا
ما لدينا وللمفسرين في الآية آراء:

الرأي الأول: قال الطبري في جامع البيان: اختلف أهل التأويل في معنى الخفة والثقل الذين أمر الله
من كان به أحدهما بالنفر معه، فقال بعضهم: معنى الخفة التي عناها الله في هذا الموضع: الشباب،
ومعنى الثقل: الشيخوخة، ثم نقل عن أبي طلحة: إن معناهما كهولاً وشباناً.

الرأي الثاني: يقول الطباطبائي في الميزان: الخفاف والثقال: جمعاً خفيف وثقيل "هكذا وردت"
والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة للإنسان عن الخروج إلى الجهاد، نظير كثرة
المشاغل المالية، وحب الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الذي يوجب كراهة مفارقتهم، وفقد الزاد
والراحلة والسلاح ونحو ذلك، والخفة كناية عن خلاف ذلك، فالأمر بالنفر خفافاً وثقالاً وهما حالان

متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أي حال، وعدم اتخاذ شيء من ذلك عذراً يعتذر به لترك الخروج، كما أن الجمع بين الأموال والأنفس في الذكر في معنى الأمر بالجهاد بأي وسيلة أمكنت، وقد ظهر بذلك أن الأمر في الآية مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التي يسقط معها وجوب الجهاد كالمرض والعمى والعرج ونحو ذلك فإن المراد بالخفة والثقل أمر وراء ذلك.

الرأي الثالث: قال القرطبي: اختلف في هذه الآية فقيل: إنها منسوخة بقوله تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) التوبة 91. وقيل الناسخ لها قوله: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) التوبة 122. والصحيح أنها ليست منسوخة. انتهى. أقول: لم يبين القرطبي أن الآيتين فيهما تخصيص لعموم آية البحث.